# تعليم

كنت فى الفصل الماضى أضع الثقافة موضع البحث وألاحظ ان التطور الحديث الذي خضعنا له منذ أول القرن الماضى قد أثر فى ثقافتنا هذه آثاراً مختلفة . وذهب بها فى طرق متباعدة فتناقضت وبان بعضها بعضا .وكانت لنا عقول متفاوتة يذهب كل منها فى التصور والتفكير والحكم مذهبا لايذهبه الاخر. فالعقل الازهري والعقل الذى تنتجه المدارس المدنية الخالصة والعقل الذى تنتجه المدارس المشتركة بين النظامين الدينى والمدنى كل هذه العقول يتصور ويحكم ويفكر على أسلوب خاص به مقصور عليه . وينتج من هذا ان وحدتنا القومية نفسها ضعيفة واهية معرضة للخطر اذا عصفت بها الحوادث وأصابتها فتنة أو محنة من هذه التي لاتكاد تبرأ منها أمة من الأمم فى عصر من العصور

وكنت أرى ان الخير انما هو فى أن يجتهد المشرفون على التعليم في وزارة المعارف والازهر فى أن يقربوا مسافة الخلف بين هذه العقول المتباعدة حتى تصبح لنا ثقافة واحدة وحتى نصبح بفضل هذه الثقافة أمة واحدة بالمعنى الصحيح لهذه الكلمة

وأنا أحب أن أعود الي هذا الموضوع اليوم لاتمه واستقصي القول فيه . فكل شيء يدعو المفكرين فى مصر الان الى ان يتناولوا هذا الموضوع بالدرس والاستقصاء . فنحن نتفق من حياتنا القومية عصرا سيكون له أعظم الأثر وأبلغه لافى مستقبلنا وحدنا بل فيه وفى مستقبل الشرق العربى الذى يتأثرنا ويحتذينا له إماما

نحاول أن نظفر بالاستقلال السياسى التام ومأرى ان عصراً طويلا سينقضى دون أن نكون قد ظفرنا به

والاستقلال السياسى تبعة قبل ان يكون مزية . فهو يفرض علينا من الواجبات اكثر مما يعطينا من الحقوق . وحسبك انه يفرض علينا النهوض باعبائنا الخاصة تدبرها وحدنا لانعتمد فى تدبيرها على أحد . ولا نستطيع أن نحمل غيرنا تبعة الخطأ فى هذا التدبير وحسبك أنه يفرض علينا النهوض بواجباتنا الدولية على أحسن وجه ممكن لانعتمد فى ذلك الا على أنفسنا ولانستطيع أن نعتذر من التقصير فيه لأن غيرنا قد حال بيننا وبين ما كنا

نريد . فالاستقلال السياسى اذن يضطرنا الي أن نواجه كثيراً من الحقائق الواقعة كان غيرنا ينوب عنا فى مواجهتها ونعالج كثيرا من المسائل المعقدة كان غيرنا يكفينا مشقة البحث عما نحتاج اليه من حل او علاج . وكل ما نأتيه من أمر فى مواجهة تلك الحقائق أو التماس العلاج لهذه المسائل يترك أثاره الباقية فى حياتنا الخاصة وفي حياة الأمم الشرقية العربية التي تسير على آثارنا وتحرص على تقليدنا قليلا وكثيراً . فمن أوضح الأمر اذاً أن نستعد للنهوض بهذه الاعباء واحتمال هذه التبعات التى يفرضها علينا الاستقلال السياسي الذى نجد فيه ونوشك أن نظفر به . وأول عدة يجب أن نتخذها لهذا انما هى تكوين وحدتنا القومية اذا لم تكن موجودة وتقويتها ان كان فيها شيء من الضعف أو الفتور . وأوضح سبيل الي تكوين هذه الوحدة أو تقويتها انما هو وضع نظام تعليمي عام يلائم حاجياتنا ومثلنا العليا من جهة ويحقق لنا وحدة الثقافة من جهة أخرى

ونحن نعني بأمر التعليم وأصلاحه منذ ظهرت حركتنا الاستقلالية الأخيره . وأتيح لنا من الحرية حظ يمكننا من أن نقضى فى هذا الامر من غير رقيب . ولكن الغريب أننا نحس الحاجة الي الاصلاح ونحاول السعي اليه فى غير روية ولا اناة ولا تفكير ونحن نفكر فيه تفكيراً مضطربا لا نظام له ولا قوام . نشعر بان الاجنبي قد أشرف على أمور التعليم عندنا يوجهها وجهة تلائم منفعته هو اكثر مما تلائم حاجتنا نحن فنجد فى هدم ما بناه الاجنبي لا نكاد نفرق بين الجيد منه والردىء . وربما حاولنا أن نلتمس لهذا الهدم عللا اخرى غير هذه العلة . فنزعم أن المنفعة الصحيحة تقتضي أن نعدل عن منهج قديم الي منهج جديد وأن طاقة التلاميذ والطلاب تقتضى أن ننصرف عن نظام الي نظام ، وأن طبيعة الحياة الجديدة التي نحياها تقتضى أن نجدد التعليم كما نجدد غيره من ضروب النشاط العقلي والاجتماعى الي غير ذلك من هذه العلل المسرفة فى الغموض أو المسرفة في الوضوح . والتي نقرأها كل يوم فيما ينشىء الكتاب من فصول وما يصدر الوزراء من قرارات وما يلقي النواب من خطب وما يضع الفنيون من تقريرات . والحق الذى لا يحتمل الشك هو أن وزارة المعارف الي الآن لم تستطع أن ترسم لنفسها طريقة واضحة تسلكها الي اصلاح التعليم لأنها لم تستطع الى الآن أن تتبين فى وضوح وجلاء الغرض الصحيح الذي من أجله توجد وزارة المعارف والذى من أجله يتعلم الناس . وأكبر الظن أن وزارة المعارف تشعر بانها موجودة لأن طبيعة الاشياء اقتضت

وجودها وبان الناس يتعلمون لأن العادة جرت بان يتعلموا ليس غير . ولكن الواقع أن طبيعة الحياة الجديدة فى هذا العصر الحديث قد اقتضت وجود وزارة المعارف فى البلاد المتحضرة لأنها اقتضت أن يصبح التعليم قوميا بعد أن كان فرديا وأن تشرف الدولة قليلا أو كثيرا على هذا التعليم القومي بعد أن كانت تتركه حرا يذهب فيه الافراد مذاهبهم المختلفة المتباينة

فالتعليم اذاً امر قومي تشرف الدولة عليه اشرافا يختلف قوة وضعفا باختلاف المذاهب السياسية في بسط سلطان الدولة على الامور العامة او قبضه عنها ولكنها تشرف عليه فى كل حال كما تشرف على سلامة الوطن وأمنه واستقرار العدل فيه

واذا كان التعليم قوميا فيجب ان يكون له غرض قومي يسعي الى تحقيقه ويكون ملاءما له فى الطبيعة والجوهر والنظام

فما الغرض القومي الذى نسعى اليه حين ننشىء المدارس ونقيم المعاهد ونفرض لذلك الضرائب وننفق فى ذلك الاموال ؟

ونلاحظ قبل أن نجيب على هذا السؤال أن من الواجب أن هذه الالفاظ العامة المبهمة التي لا تدل على شيء لأنها تدل على كل شيء كالمنفعة والرقى والتقدم والجهاد فى سبيل الحياة وما الي ذلك من هذه الالفاظ التى يألفها الناس ويكلفون بها لأنها سهلة على الالسنة يسيرة على العقول لا يحتاج من يسمعها أو ينطق بها الى أن يحقق لها معني دقيقا محدوداً . يجب أن نجتنب هذه الالفاظ أو نجتنب على أقل تقدير استعمال هذه الالفاظ في غير ضبط أو تحديد . فلم يؤخر فوزنا بما ينبغى من اصلاح التعليم الا الركون في مثل هذه الالفاظ العامة الغامضة

يخيل الي ان للتعليم القومي أغراضا ثلاثة تحرص عليها الامم حين تنشىء المدارس وتقيم المعاهد وتفتح دور العلم للناس. فالامة تعلم أبناءها لتنقل الى هؤلاء الابناء تراث ابائهم من جهة، والتراث العقلى والفنى والادبى للانسانية من جهة اخرى. وهي حين تنقل هذين النوعين من التراث الى الاجيال الناشئة تحتفظ للامة بشخصيتها ومقاومتها من حيث هي وحدة مستقلة وتقوى الصلة بينها وبين الامم الاخرى فتمكنها من أن تأخذ بحظها من التضامن الانسانى العام الذى يدفع الانسانية الى ان تحيا وترقي وتصلح من امرها اصلاحا

مضطردا فالغرض الاول اذا من التعليم القومي يجب أن يكون الاحتفاظ بشخصية الامة لتعيش مستقلة من ناحية ومتضامنة مع غيرها من ناحية أخرى

والامة تعلم ابناءها اظهرهم على أسرار الطبيعة وظواهر الكون فتمكنهم من أن يسيطروا على هذه الطبيعة و يسخروها لارضاء حاجتهم المختلفة ليعيشوا وليعيشوا عيشة مترفة . أو على أقل تقدير عيشة تكفل لهم حظا معتدلا من الراحة والتعليم فهم يدرسون من العلم والادب والفن ما يتيح لهم أن يزاولوا ضروب الصناعة والزراعة والتجارة وغيرها من الاعمال التي تقتضيها الحضارة والتي يعتمد عليها الناس ليكسبوا ما يحتاجون اليه من رزق

فالغرض الثاني من أغراض التعليم القومي تمكين الاجيال الناشئة من أن يصلوا حياتهم بحياة آبائهم و يرقوها ما استطاعوا الي ذلك سبيلا

والامة تعلم أبناءها لان الله قد وهبهم عقولا تحب الحق من حيث هو حق وتلتمسه . ونفوسا تحب الجمال من حيث هو جمال وتطمح اليه وقد أودع الله هذا العالم حقا وجمالا فنحن مفطورون على أن نحبهما ونسمو اليهما وعقولنا تستكمل طبيعتها وتنموها بذلك الحب لهذا السمو. ونفوسنا كذلك لا تعتدل ولا تستريح الى الحياة ولا تنتج الا بذلك الحب ولهذا السمو .فالغرض الثالث من أغراض التعليم القومي انما هو تمكين الاجيال الناشئة من أن تستكمل حياتها العقلية والشعورية الصحيحة بحب الحق والخير وتحصيل أعظم حظ ممكن منهما . ولكل غرض من هذه الاغراض الثلاثة نوع من أنواع التعليم القومي يلائمه ويعين على تحقيقه وهذه الانواع كلها متضامنة في تكوين الرجل النافع الذي يصلح عضوا منتجا قيما في الحياة العامة للامة وللانسانية

فالتعليم الاولى يكون أقل مقدار ممكن من الثقافة التي يجب ان تشترك فيها الامة كلها لتحقق وحدتها والانسانية كلها ليتحقق التضامن بين أجزاءها . والتعليم الثانوي والفني يتمان تحقيق هذا الغرض الأول و يحققان الغرض الثاني لأنهما يمكنان الشباب من العمل ويفتحان لهم أبواب الجد والنشاط فيما يحتاجون اليه ليعيشوا عيشة خفض ونعيم . والتعليم العالي يتم تحقيق هذين الغرضين و يحقق الغرض الثالث لانه يمكن الشباب من ان يروا الحق والخير و ياخذوا منهما بما يلائم أمزجتهم وطاقتهم من الحفظوظ

على هذا النحو تفهم التعليم القومي وعلى هذا النحو وحده تفهم عناية الحكومات

بالتعليم القومي وماتضطرها اليه هـذه العناية من فرض الضرائب وشرع القوانين وتقييد حرية الأفراد والجماعات

واذا كان هذا النحو من فهم التعليم القومي صحيحا فمن الواضح أن الحكومة حين تعنى به وتشرف عليه يجب ان تضع من النظم والمناهج مايلائم هذه الاغراض ويعين على تحقيقها فليس تعليما قوميا صحيحا هذا التعليم الاولي الذى لايعرف التلميذ تاريخ أمته ومنزلتها الصحيحة من الحياة العالمية. وليس تعليما قوميا هذا التعليم الثانوى أو الفني الذي لا يمكن التلميذ من العمل المنتج ولايفتح له أبواب الحياة. وليس تعليما قوميا هذا التعليم العالى الذي لايثير فى نفس الطالب حب البحث والاستكشاف والرغبة الصادقة فى تنمية التراث العلمي والفني للانسانية

واذا فليس وضع مناهج التعليم و برامجه أمرا يسيرا يمكن ان يعهد به الى كل انسان مثقف وانما هو أمر دقيق يجب ان يعهد به الى الذين يعرفون تاريخ الامة ويقدرون حاجتها ويستطيعون ان يلائموا بين هذا التاريخ وهذه الحاجات وبين ماينبغى ان يكون للامة من مثل أعلى فى الحياة . وما ابعد المسافة بين هـذا النحو من تصور التعليم القومي وبين هذه الخطط المضطربة التى اتخذها أولو الامر عندنا وسيلة الى تعظيم التعليم

وأنا أرجوا ان أعود الى هذا الموضوع فابسط فيه القول مرة أخري

طه حسين